الفيزيوقراطيون . .

Les phyiocrates

للاستاذ محمد محمود زيتون

سادت فرنسا فى القرن الثامن عشر موجة فكرية تدعو إلى الطبيعة Nature واشتدت هذه الموجة بفضل ما كتبه أدباء فرنسا ومفكروها سواء صدروا فى كتاباتهم عن الإنجليز المعاصرين أمثال لوك Locke ، أو تأثروا بحالة بلادهم فتمثلوها وترجموا عنها أدبا وفلسفة واقتصادا وسياسة إلى غير ذلك من نواحى النشاط الإنسانى .

رددت تلك الدعوة إلى الطبيعة على كل لسان وقلم ، وامتزجت بها كل وحدة من وحدات المجتمع الفرنسى . وكان من بين تلك الدوائر جماعة الطبيعيين « الفيزيوقراطيين » الذين كانوا خير من تبنوا هذه الدعوة وأذاعوها وأوصلوها إلى نتائج وقفت الحضارة الفكرية عندها طويلا ، لأن هذه الجماعة سوغت لنفسها أن تتخذ « العلم العام المجتمع » مذهبا لها .

نشأت هذه الجماعة فى فرنسا حوالى سنة ١٧٥٠ م وكان مؤسسها « كسنى Quesnay » الذى ساهم فى قيامها بكتبه التى تحوى جميع العناصر الرئيسية للمذهب ، من ذلك : مبدأ الحق الطبيعى ، ونظرية الإنتاج الزراعى الخالص ، ونظرية الشركة العادلة بين الملاك والمنتجين ، ونظرية الاستبدال الطليق ، ونظرية الحكومة الاستبدادية المستنيرة . وقد انتشرت هذه التعاليم بحذافيرها حينا ، ومعدلة حينا ، ومغيرة حينا فى خارج

ولماذا ؟ لأن المشيخة لم تحب ، ولا تحب ، أن ينتفع الأزهر بمبعوثيه ، لأنها لم تحب ، ولا تحب ، أن تستعين بهم — كما تفعل الجامعة ووزارة المعارف — فى التوجيه الصحيح فى المعاهد والكليات ؛ لأنها لم تحب ، ولا تحب ، أن تجعل لهم الإشراف على ما يواجه الأزهر هذه الأيام من الاتصال الشديد بالعالم الإسلامى والعالم العربى فى أوربا وغير أوربا .

وبهذا ، صار للأزهر شكل الجامعة ، دون أن يكون له حقيقتها ، ما دام لا يسير على نظم الجامعات ! وصار له أعضاء بعثات حازوا أكبر الدرجات العلمية من الأزهر ومن أوربا ، ولكن لا يحاول أن يفيد منهم! وأصبح من العبث إرسال بعثات أخرى ، تكلف أعضاءها كثيراً من الجهد وتنفق عليهم كثيرا من المال ، حتى إذا عادوا تركوا دون الإفادة منهم كإخوان لهم من قبل !

* * *

إن الأزهر لا يسير منذ سنين طويلة فى الطريق الصحيح ؛ وتلك حقيقة تعرفها الأمة وقادة الرأى فيها، كما يعرفها الأزهريون أنفسهم. وإن من دلائل ذلك ما نراه من تخلف الأزهر فى ميدان الإنتاج العلمى، حتى حين يتصل بالتراث الإسلامى. وإن من دلائل ذلك عدم القدرة حتى الآن على عرض الإسلام عرضا سليما واضحا يجد فيه العقل رضى والقلب هدى ، ونتعرف منه الرأى الحق فى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى تنوعت كثيراً هذه الأيام .

وإن من دلائل ذلك ما حدثنى به جمع من تلاميذى ، من أنهم لا يحسون الأمة تضعهم فى المنزلة التى تضع فيها طلاب الجامعة . ذلك بأن الأزهر ، كما قلت أول الحديث ، تسوده روح التفريط : تفريط من الطلاب فى الإخلاص للعلم ، وتفريط من الأساتذة فى مديدالعون لهم وتوجيههم الطريق السوى، وتفريط من الرؤساء — إلا من عصم الله وهم قليل نادر — فى طلب الرأى ممن يراه وفى الاستماع للنصح حين يتقدم به الثقة الأمين .

ولعل الله يعرفنا الباطل باطلا فنجتنبه ، ويرينا الحق حقا فنتبعه . وأدعو الله لأستاذنا الأكبر شيخ الأزهر، قابسا من دعاء الدكتور طه حسين بك لرفعة سرى باشا حين كان رئيسا للوزراء فأقول :

رزقك الله سداد الرأى ، وألهمك صواب القول، وكتب لك التوفيق فى العمل ، وجعل سيرتك عزاء عن سيرة من كان قبلك ، ورضا لمن عاش معك ، وقدوة لمن جاء بعدك

محمد يوسف موسى

دكتوراه الدولة فى الفلسفة من السوربون
وأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر

فرنسا بل فى داخلها . وكل ما كتب بصددها فى المرحلة التالية للفيزيوقراطيين مباشرة إنما كان مستمدا من مؤلفات « كيسنى » وقائما على الأصول التى وضعها .

نعم سبقه كثير من الماديين ، وسار على نهجهم واعتنق بعض مذاهبهم ، وحقا إن « لوك » وغيره من الانجليز كانوا أسبق من « كيسنى » فيما ذهب إليه ، فلوك هو القائل بنظرية الحق الطبيعي ، والمدافع عن حرية التجارة ، ولكن هذه الآراء وإن تسربت كلها او بعضها إلى فرنسا إلا انها لم تعمل على خصوبة الفكر الفرنسى ، ولم تكن هى الباعث على قيام هذه المدرسة وتعاليمها ، وذلك لأن مركز فرنسا المادى حينذاك كان منحلا لما كانت تعانيه من فساد النظام التجارى ، فضلا عن انحطاط الحالة الزراعية والصناعية جميعا .

فى مثل هذه الحالة ، يتجه الاهتمام أول ما يتجه نحو « حقوق الانسان » التى تربطه بالمجتمع ، تلك الحقوق الطبيعية التى لا مصدر لها غير الطبيعة وحدها . ومن الواضح أن طبيعة الإنسان لها الحق فى كل شىء يتعلق بوجوده وسلوكه ، حتى إذا قام للمجتمع كيان ، عانى هذا الحق تحديدا لا بد منه وقد يصبح هذا التحديد خطيرا ما لم تفسره صيغة الحق droit ، والصيغة الوحيدة لهذا التحديد المطابقة للعدالة والعقل معا هى حق كل فرد فى نصيب من الخيرات التى يستطيع أن يمارسها عن طريق العمل والخدمات العامة .

وبتحليل هذا الحق الطبيعى ينتهى إلى عنصرية : الحرية المطلقة ، والملكية المطلقة ، ولكن هذه الحقوق من غير شك تفترض تبادل الواجبات . واجب العمل ، وواجب احترام الغير ، وواجب العمل على خير الغير . وعلى ذلك ينبغى أن يكون القانون الوضعى تفسيرا لهذين الجانبين من الحق الطبيعى . وهكذا تنتظم الروابط بين الأفراد بعضهم بعضا ، ولكن يبقى تحديد موقفهم من المجتمع ليكون الحق العام متمشيا مع الحق الطبيعى غير متعارض معه ، وهذا يتطلب تنظيما .

عالج الفيزيوقراطيون هذا التنظيم ، ففى الاقتصاد « ترتيب طبيعى » Ordre Naturel هو موضوع البحث فى المجتمع . وفى الاقتصاد قوانين طبيعية ، معرفتها أمر ضرورى ، وكاب لإقامة نظرية الإنتاج ، ونظرية الاستهلاك ، وهما النصفان اللذان يتألف منهما الاقتصاد .

ولم يكن « شارل جيد Ch Gide » حين قال « أداء الواجبات ، واستغلال الحقوق ، وإرضاء الرغبات ، تلك هى الأغراض الثلاثة المختلفة للنشاط الانسانى ، والأخير منها موضوع علم الاقتصاد ، ولذا نستطيع القول بأن الاقتصاد السياسى له أن يعالج الروابط بين الناس العائشين فى مجتمع من حيث تعمل هذه الروابط على إرضاء رغبات الحياة المتعلقة بالجهود العاملة على زويد الجميع بالثروة المادية » .

والأرض هى أساس الاقتصاد ، والقاعدة التى عليها يرتكز ، وحسب الفيزيوقراطيين أن يشاهدوا الطبيعة وأن يستمعوا لها ، فهى وحدها التى تفسر توزيع الدخل ، ودورة الثروة ، وقوانين المحصول الصافى وغير ذلك . ومن كل هذا استنبطوا نتائجهم ، وإن كانوا فيما بعد قد ظنوا أن القوانين التى يجب أن يتوجهوا إليها ، واضحة وضوح القوانين الطبيعية .

لقد تردد ذكر « الطبيعة » طوال القرن الثامن عشر . فعلى أى وجه ردده الفيزيوقراطيون ؟ إنهم اعتبروا فى الطبيعة جانبا ماديا ، وأرادوا أن يربطوا القوانين الأخلاقية والقضائية بقوانين فيزيقية ربطا مباشرا . يقول « ميرابو Mirebeau » « لقد عولج الحق الطبيعي باعتباره حقا عقليا دون التفكير فى خضوع قوانين النفس لقوانين فيزيقية متصلة بها اتصال الجسم بالروح »

وهذا تختلف وجهة نظر الاقتصادى ، عن وجهة نظر الأخلاقى ، فهنا يريد « ميرابو » الانتقال مما هو مادىّ إلى ما هو أخلاقى ، وذهب إلى القول بأن « الناس تحكمهم الأشياء » C'est par les choses que les hommes sont gouvernés هذه الأشياء عند « ميرابو » هى « الحبوب les grains » إذ يقول « وكما أن حبة القمح مرآة تتحدث عن حكمة الخير الإلهى وعظمته ولطفه ، فكذلك هي مرآة تتحدث عن الكواكب والعوالم إلى ما ينتهى ، فينبغى كشف عظمة القوانين الإلهية بفخامة القوانين المادية » .

وهذه النزعة — وإن بدت مادية — إلا أنها فكرة فلسفية قال بها من الفلاسفة من قال بالعناية الإلهية ، وكذلك من اعتبر

دورة الثروة circulation de la richesse كالدورة الدموية ، من حيث لها قوانينها الطبيعية فى الحياة الانسانية .

وهنا نتساءل : لماذا اهتم الفيزيوقراطيون بالطبيعة والقول بالعناية الالهية ؟ الجواب سهل يسير ، ذلك أنهم رأوا فى الطبيعة قوة أسمى من قوة الانسان ، لأن عمل الانسان تافه ، أما الطبيعة فذات قوى منتجة هى عمل إلهى ، ونوع من المنحة والنعمة .

وجد الفيزيوقراطيون إذن فى القوانين المادية قوانين إلهية ، واستطاعوا فى جرأة وإقدام أن يربطوا بين النظام الأخلاقى والنظام الفيزيقى ، لأن فى نفوسهم استحسانا له مفعوله فيها ، ويفسر « كسنى » ذلك بقوله : « المقصود بالنظام الفيزيقى هو المجرى العام لجميع الأشياء الفيزيقية ، أى هو النظام الطبيعى الأكثر نفعا للجنس البشرى . وبهذا القول نكون قد وفقنا على جوهر المذهب الفيزيوقراطى ، إذ القاعدة العامة لكل عمل إنسانى تنطبق على أنفع نظام فيزيقى للانسان وهذه القواعد كلها تكون قانونا طبيعيا ، واضعه الله ، وهذه القوانين ثابتة دائمة ، وهى أحسن ما يمكن أن يكون .

بفضل هذا الاستحسان استطاع الفيزيوقراطيون أن يقربوا بين القوانين الطبيعية naturlles الضرورية وبين القوانين الفيزيقية physiques ، وأفهمونا بذلك الحقوق الطبيعية .

وكان مذهب الأحرار Libéralisme منطويا فى مبدئهم العام والخاص على وجوب ترك القوانين الاقتصادية حرة طليقة ، وعلى ترك الباب مفتوحا للتجارة الحرة ، فاشتهر فى الأوساط الاقتصادية مبدؤهم المشهور Laissez aire laissez passer ، أى « دع القوانين تعمل ، ودع التجارة تمر » وكان أيضا داعيا إلى القوانين الطبيعية ، والحقوق الطبيعية ، ومستتبعا لنظريتهم فى الطبقات théorie des classes

ولقد جاء الفيزيوقراطيون بفكرتين جديدتين هما :

١ — سمو الزراعة على التجارة والصناعة .

٢ — إيجاد « نظام طبيعى أساسى للمجتمعات الانسانية » كما يدل على ذلك نص عنوان كتاب الفيزيوقراطي الشهير « مرسييه دى لارفيير » Mercier de la Riviere

أما الزراعة فقد أعطاها الفيزيوقراطيون من الأهمية ما لم يعطوه لغيرها ، لأن الزراعة فى نظرهم ليست مصدر الغلة الصافية فقط ، بل هى المصدر الوحيد للثروة ، وما عداها عقيم Sterile والانتاج الزراعى أجل من غيره من الانتاجات لأن الأرض تحتوى على جميع أسرار سعادة الانسان .

والزراعة أولا وبالذات هى التى تخلق الثروة ، أما الصناعة والتجارة وسائر الحرف فكل عملها أن تحول الثروة ، وشتان بين الخلق Créer والتحويل Transformer ، ثم إن العمل الزراعى — دون سواه — يعالج المواد من أجل الثروة .

والتعدين والقنص والسباكة كل ذلك تابع للعمل الزراعى ويندرج تحت اسم « استخدام الطبيعة » ولو أمكن استخدام الهواء والماء لحسبهما الفيزيوقراطيون أيضا من هذا العمل .

وضع الفيزيوقراطيون لهذه الأعمال جداول ، ووضعوا لها قواعدها وشروطها ووسائلها ، أما التجارة فإنها لا تزيد من قيمة المنتجات بتحويلها ، فقالوا : « إنك حين تنصرف عن المحراث لتكون تاجرا ، فإن التجارة لن تجعلك تنتج قمحا » وأما الصناعة فهى كالتجارة تحول ولا تخلق .

ولنا أن نقول هنا إن ما يسميه الفيزيوقراطيون نظرية لا يعدو أن يكون مجرد رغبة أو رأى ، حفزهم إليه النزوع الأدبى قبل كل شىء ، وليس أدل على ذلك من كتابات « روسو » الأديب السياسى معا ، وقد سارت السياسة والأدب فى عصره جنبا إلى جنب .

والنفس بطبيعتها تنزع إلى الطبيعة بما فيها من وداعة واطمئنان بعد الشعور بالمادية الطاغية وعند النفور من لجب المدينة وضوضائها . على أن القول بأن الزراعة تخلق الثروة غير صحيح ، لأن الفلاح لا يخلق شيئا ، وإنما هو يحول فى المواد إلى التربة والهواء ويؤلف بينهما ، فهو يستنتج القمح من الماء والبوتاسيوم والسليكون والفوسفات والنتروجين ، شأنه فى ذلك شأن الصابون يصنع الصابون من المواد الدهنية والبوتاسا . وإذن

لا فضل للزراعة على غيرها من هـذا الاعتبار . ولذا لم يتردد « آدم سمث A Smith وغيره فى اعتبار الصناعة عملا منتجا ، بل أول عمل منتج ، وأكثر من ذلك فإن الخدمات حتى الفنية منها لم يتردد الاقتصاديون فى اعتبارها أعمالا منتجة .

وإذا كان رأيهم فى الزراعة — على النحو الذى بينا — يمثل المظهر الاقتصادى لمذهبهم ، فثمت مظهر اجتماعى له ، يمثله رأيهم فى طبقات المجتمع ، وهو نتيجة محتومة للنظرة الاقتصادية .

فكما أن ما عدا الزراعة — فى نظرهم — عمل عقيم ، فكذلك كل طبقة ماعدا الزراع طبقة عقيمة . ولما كان الفلاح هو المساعد المباشر للقدرة الإلهية ، وعمون الأمة جميعها ، فهو وحده الذى يستحق أن يندرج فى قائمة المنتجين . يقول « ميرابو » فى هذا « إن الرجل الذى يجهد فى استخراج محاصيل الأرض هو الرجل الأول فى المجتمع ، فكيف يستطيع الملك والقواد والوزراء أن يعيشوا من غير الفلاح ، وإن كان الفلاح يستطيع أن يعيش بدونهم ؟ »

كل الطبقات — مهما علت أو سفلت — عالة على الفلاح ، وليس الفلاح عالة عليهم ، وهذا ما سيقرره فيما بعد أنصار مذهب Tiers - Etat مثل « سيس » Seyes وأنصار الصناعة مثل « سان سيمون » S. Simon الذى قرر « أن فرنسا إذا فقدت الملك والوزراء فإنها لا تفقد شيئا ذا بال ، أما إذا فقدت التجارين والنساجين والعمال عامة تعطلت الحياة ، وفقدت كل شىء » . وهكذا يكون قد تابع « كنى » و « ميرابو » على نحو آخر .

ماعدا الزراع فى الطبقات عقيم ، لأنهم لايأتون — كالزراع — بإنتاج جديد ، إذ العامل والصانع عندهم سيان ، وبذا ظل الفلاحون وحدهم المنتجين بمعنى الكلمة .

أما الملاك فلم يلق الفيزيوقراطيون بهم فى سلة الطبقات المهملة لأنهم حين أرادوا النهوض بالزراعة ، احتاجوا إلى رؤوس الأموال فوجدوها عند الملاك ، وبذلك كان مذهبهم مناهضا للاشتراكية Anti . Socialiste وهم — إذا حرموا العمال شرف الإنتاج فى الطبقات المنتجة — كانوا ضد العمالية Anti Ouvrieriste

وهم — حين أرادوا التقرب إلى الفلاحين واستغلال منتجاتهم — فتحوا الباب لمنح الامتيازات لهم ، بعدم دفع الضرائب ، والإقرار بأن الفلاحة من الحرف ذات الامتيازات .

وإذا كان من الواجب على الاقتصادى أن يحقق التضامن الاجتماعى بالقضاء على الفردية الهمة من جهة ، والطائفية الغالبة من جهة أخرى ، فإذا بالفيزيوقراطيين — وهم الساعون إلى الحقوق الطبيعية والمنادون بالحرية — يعملون على انحلال اجتماعى خطير ، بإقامتهم حواجز وفواصل بين الطبقات لا تعاون بينها ولا تضامن .

تطور المذهب الفيزيوقراطى — شأن كل مذهب — إلى لون سياسى اقتصادى فى آن واحد ، يناهض الاشتراكية ، وتوارثته الأفكار حتى انحدر إلى أتون الثورة الفرنسية ، وأجج نيرانها وعارض فلاسفة القانون .

قال « منتسكيو » بالسلطات الثلاث ، وألحقها « روسو » بالارادة العامة ، وحقا استنكر الفيزيوقراطيون الحكم الاستبدادى غير أنهم التمسوا العذر لأمبراطور الصين المستبد لأنه فى ساعة معينة من السنة يضع المحراث بنفسه فى الأرض يحرثها .

ومهما يكن من شىء ، فقد كانت هذه الأنظار الفيزيوقراطية إرهاصا بمجهود فكرى جيد ، احتمله فلاسفة الاصلاح ، وعلى رأسهم (روسو) و (هوبز) و (منتسكيو) وقد أفادوا من المذهب الفيزيوقراطى أصوله السياسية كالحقوق الطبيعية ، وأصوله القانونية والاجتماعية كالارادة العامة ، وساروا بها شوطا بعيدا حتى جاء (دوركيم) زعيم المدرسة الاجتماعية الفرنسية الحديثة ، فعمل على تجريد البحث الاجتماعى من الجانب النفسى ، وضم البحث الاقتصادى إلى فروع علم الاجتماع البحت ، وا كتشاف القوانين الصارمة ، ورسم البرامج لذلك كله .

محمد محمود زيتون